الأبوان

فى عام ١٧٨٧ كانت مدينة وارسو سعيرا محتدما تغلى فيه مراجل الثورة النفسية المشبوبة ، والجماهير تجوب مسالكها وطرقاتها قلقة متطلعة ترقب فجر اليوم الجديد الذى يسفر عن انعقاد أول برلمان يضع حدا لفوضى مظالم الماضى ، ويحكم الأساس الوطيد لبنيان المستقبل المجيد . والآمال معقودة على أن تصبح بولونيا دولة قوية الشوكة منيعة الجانب ، تستطيع النضال عن كيانها والنضح عن كرامتها والذود عن حماها .

ولو أتيح لك أن ترى شوارع العاصمة الكبرى لراعتك هذه الأفواج الصاخبة من الشعب وهى تخطر فى أزيائها المتباينة وملابسها العديدة الألوان وقد انعكس عليها شعاع الأمل البراق فجعل من صورها العديدة مناظر سحرية تشف عن الايمان العميق ، وتنم عن الشعور المتوثب الطموح .

وفى وسط تلك المواكب المؤلفة من شتات المظاهر والأزياء ، وبين تلك الحركات غير العادية كنت تلمح شابا فرنسيا قد اندمج فى صفوف تلك الجماهير المائجة ، وهو لم يعدّ الشهور الأولى من هجرته من فرنسا وطنه الأول الى بولونيا وطنه الثانى . انه الفتى نيقولاس شوبان(Nicolaus Chopin) منحت « فردريك شوبان » الموسيقار الخالد .

نیقولاس شوپان (والد فردریك شوپان)

جوستينا كرزيزا نوڤسكا (والدة فردريك شوپان)

obeikan.com

ولد هذا الفتى الفرنسى فى الخامس عشر من ابريل عام ١٧٧١ (وليس فى السابع عشر من ابريل عام ١٧٧٠ كما كان هو الزعم السائد فى تاريخ مولده) بنانسى أحدى مدن اللورين . وكان والده « فرنسوا » محترفا للنجارة ، كلفا باستخراج النبيذ . ودرج نيقولاس بين ربوع نانسى الى أن بلغ السابعة عشرة من عمره حيث هاجر منها الى بولونيا عام ١٧٨٧ تاركا بيته وأهله ومسقط رأسه . ومنذ هذا الحين تلاشت من لوح ذاكرته تلك الأسرة التى ألقى بها وراء حجاب الماضى المجهول ، والتى كانت تتألف يوم فارقها — مودعا أو غير مودع — من أبويه وشقيقتيه . فانه ما كاد يهبط الوطن الجديد حتى انخرط فى مجتمعه ، وقاسم الأهلين شعورهم وأحاسيسهم ، وعاش فى آلامهم وآمالهم كما لو كان يمت اليهم بالقربى القريبة والنسب العريق والدماء المشتركة والتقاليد الموروثة . ولأمر مجهول ، ولسبب خفى ، لم يعد أحد يسمع منه كلمة يذكر بها أسرته فى فرنسا . وقد بلغ من تجاهله لها وتناسيه اياها أن تنكر لذكرياتها ، وأصبحت فى طوايا نفسه سرا مكتوما يحتجزه عن أقرب الناس اليه ، ويخفيه حتى عن أفراد بيته الجديد فى بولونيا . وبلغ من أمر هذا التناسى والكتمان أن والده « فردريك » الموسيقار بعد أن ناهز العشرين من سنه ، وطار به نبوغه وشهرته الى باريس ، وأقام بها نجما لامعا فى سماء العظمة وبعد الصيت وعلو المنزلة لم يكن حتى ذلك الحين يدرى أنه يوجد له فى قرية غير نائية عنه عمتان تعيشان العيشة القروية البسيطة بين صغار الزراع .

ومن الثابت تاريخا أن « نيقولاس شوبان » لم يتوان عن اظهار رغبته فى الحصول على الجنسية البولونية منذ وطأت أرضها قدماه ، تلك الرغبة الملحة التى تجلت آثارها فيما بعد وهو يتحدث عن فرنسا باعتبارها احدى الدول الأجنبية عنه .

وكان يعمل فى بداية اقامته بوطنه الجديد كاتبا فى أحد مصانع التبغ . ثم حدثت انقلابات سياسية عصفت رياحها بهذا المصنع وسواه . حيث ارتطمت البلاد كلها بموجة شديدة من الفوضى وتزلزل الأمن وعدم الاستقرار . وقد حملته تلك الشدائد الطاغية والفاقة المنذرة بالفناء على أن يبحث عن فرنسا فى أطلال الذكريات ليعود اليها طلبا للنجاة . ولكن مرضا مضنيا أقعده عن تحقيق ذلك فواصل اقامته فى بولونيا طوعا أو كرها . وهو فى اقامته تلك صادق العزيمة قوى الايمان ، فما تكاد بولونيا تتعرض لمشكلة من مشاكل السياسة فى السلم أو الحرب حتى تراه فى الطليعة ، يحمل العبء ويرفع العلم ، كوطنى يجرى فى عروقه الدم البولونى الصميم . ففى عام ١٧٩٤ وهو فى الثالثة والعشرين من عمره تطوع فى الجيش البولونى وامتشق الحسام فى حرب ضد الروس دفاعا عن وارسو . ولما انتهى النضال بتغلب روسيا واستيلائها على المدينة فكر ثانية فى العودة الى فرنسا ، وهو لايفكر فيها الا حين ترغمه الأحداث وتضيق به أرض بولونيا وتتجهم له فيها الحياة . ولكن مرضا أعنف من مرضه السابق قعد به هذه المرة كذلك ، وقد كان منه على شفا الموت . وبعد أن عوفى من مرضه ذاك استبعد من آماله العودة

المنزل الذى ولد فيه فردريك شوپان فى زيلازوڤا وولا

الى فرنسا حتى الأبد . ورسخ فى نفسه الاعتقاد بأن لله مشيئة فى ألا يغادر بولونيا وقال فى ذلك : « لقد حاولت العودة الى فرنسا مرتين ولكنى أصبت فى كل مرة بمرض كاد يسلمنى الى الموت فلم يكن لى بد من أن أخضع للارادة الالهية وأبقى حيث يريد الله لى » . ومن بداية ذلك الحين وجه جهوده الى تعليم اللغة الفرنسية فى دروس خاصة لأبناء أسر الأشراف فى بولونيا .

وفى عام ١٨٠٦ وقد بلغ « نيقولاس » الخامسة والثلاثين من سنه كان يقوم بتدريس الفرنسية لأبناء النبيلة سكاربيك (Skarbek) فى زيلازوفا وولا (Zelazowa Wola) قرية تبعد عن وارسو ستة أميال . فأتاحت له الظروف التعرف الى جوستيناكرزيزانوفسكا (Justine Krzyzanowska) فتاة فى الرابعة والعشرين من فقيرات النبلاء ؛ وهى اذ ذاك احدى وصيفات النبيلة « سكاربيك » جريا على التقاليد التى كانت تقضى بأن يعيش الفقيرات من النبيلات كوصيفات فى ظل الأغنياء منهن . فاقترن بها نيقولاس شوبان عام ١٨٠٦

وفى تلك البقعة النضرة ، والى جانب قصر النبيلة الشامخ ، كان يقع بيت صغير متواضع قد أسبغت عليه الطبيعة حلة رائعة من بساطة الجمال ، وفصلته عن قصر السادة بعدد من الأشجار الباسقة الفرعاء . وقدر لهذا البيت أن يصبح عش السعادة الهنىء للزوجين الشابين اللذين أقاما فى ثلاث غرف منه ، عن يمين الداخل ، وعلى ارتفاع قليل من الدرج . ولم تكن سقوف تلك الغرف ترتفع

عن القامة الا يسيرا . وانها لزيجة رفرف عليها التوفيق بجناحيه ، وأحاط بها الخير من كل مكان . فقد كان عماد البيت فيها تلك النبيلة الصالحة المتواضعة التى جمعت الى رقة الشمائل قوة الايمان بالله ، فوهبت نفسها لأسرتها ، وعاشت لبيتها ، وقاسمت زوجها حلو الحياة ومرها ، وشظف العيش ولينه . دل على ذلك اجماع من خالطهما أو اتصل بهما ، وكذلك رسائلهما الى ولدهما نجم الموسيقى المنتظر ، كما نطقت به الصور الخالدة التى ابتدعها عباقرة الرسامين للزوجين بعد أن أصبح ولدهما بين أعلام الفن الذين ينقب التاريخ عن بيئاتهم وأسرهم .

وكانت الثمرة القريبة لهذا الزواج طفلة سمياها لويزا (Louise) ولدت عام ١٨٠٧ . وفى الثانى والعشرين من فبراير ١٨١٠ ، فى الساعة السادسة مساء ، استقبلت الدنيا نجم الفن الجديد . وولد الموسيقار الخالد فردريك شوبان (Friedrich Chopin) فكان مهده الأول ذلك البيت الصغير المتواضع المختبىء بين أشجار قرية « زيلازوفا وولا » .

ولعل من دعابات القدر وطرائفه أن تصادف ساعة ولادة الطفل وجود فرقة موسيقية كانت تعزف بالألحان تحت نافذة الأم فى مناسبة أحد أفراح القرية ، فكأن الموسيقى تأبى الا أن تستقبل مولودها ونجمها المنتظر بهذا الموكب الذى ألفته الأقدار حتى يكون أول صوت يستقبله سمع الطفل هو صوت الموسيقى التى هى موضوع رسالته فى الحياة .

منظر داخلى للمنزل الذى ولد فيه فردريك شوپان فى زيلازوڤا وولا
وفى الجزء الخلفى تظهر الغرفة التى ولد فيها

بهو فى المنزل الذى ولد فيه فردريك شوپان

obeikandl.com

وهنا لابد من عرض موجز لمشكلة أثارها التحقيق والبحث عن تحديد تاريخ ولادته على وجه لا يحتمل الشك ولا يقبل الانكار. وقد نشأ ذلك عن الخلاف بين المؤرخين بسبب تضارب المعلومات المستقاة عن أهله أو عن الوثائق الرسمية . فقد ثبت فى أحد سجلات المواليد بالكنيسة أن مولد الطفل كان فى الثالث والعشرين من ابريل عام ١٨١٠ وبذا يتأخر مولده شهرين كاملين عما أوضحناه آنفا . أما الموسيقار نفسه فكان يعتقد أنه ولد فى الأول من مارس عام ١٨١٠ . وقد سجل هذا فى رسالة منه مؤرخة فى السادس عشر من يناير ١٨٣٣ وجهها الى الجمعية البولونية الأدبية بباريس لتنشر فى الطبعة الأولى من كتاب « التاريخ العام لحياة أعلام الموسيقى » لناشره « فيتس » . وكذلك كانت أمه وشقيقاته ورفاقه فى المدرسة وتلاميذه فيما بعد ، متفقين جميعا على أن تاريخ مولده هو اليوم الأول من مارس . يثبت هذا ماورد اليه فى رسالة من والدته تقول فيها : « لقد كنت كثيرة التفكير فيك يا بنى العزيز فى أعيادك السنوية ، يوم مولدك ويوم تسميتك ، فى الأول من مارس وفى الخامس منه » .

وقد قرر « كاراسوفسكى » أول من صنف تاريخا رسميا لحياة الموسيقار أن مولده كان فى أول مارس استنادا الى ما استقاه من شقيقته « ايزابيلا » . وتبعه فى ذلك غير واحد من المؤرخين . وعلى هذه الروايات اعتمد الموسيقار لست (Lisz) أحد أعلام الموسيقى المعاصرين لشوبان .

ولكن التاريخ الموسيقى الحديث ، المنقب الفاحص ، الذى لا يستسلم للروايات المنقولة حتى عن الوالدين وهما أقرب الناس وأوثقهم معرفة ودراية ، هذا التاريخ ترك المختلفين جانبا ، وحمل مصباحه الكشاف ، حتى عثر على الوثيقة الناطقة بصحة مولد الطفل ، ويومه المحدود ، وساعته المعينة . واستخرج شهادة « التعميد » الخاصة به فى سجل كنيسة بروشوف (Brochow) على مقربة من « زيلازوفا وولا » حيث ثبت فيه تحديد ولادته فى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٨١٠

ومن العجيب أن يثار هذا الجدل كله حول ميلاد طفل معجز اشتهر أمره ونبه ذكره منذ شب عن الطوق ، ولم يكن أحد يجهل مكانته ، لامن أهله ولا من أهل مدينته والعارفين بمنزلته والمتطلعين الى مستقبله المرقوب . وكل ذلك مدعاة الى تساؤل الجميع عن عمر الطفل كلما بهرهم نبوغه وسحرتهم عبقريته .

ومهما يكن من شيء فقد استطاع جهد المؤرخين الموسيقيين أن يصححوا خطأ التقدير فى تعيين مولد ذلك العبقرى ، فأعادوا الأمر الى صوابه . والتاريخ الى نصابه ، فكان لهم من الثناء والشكر ، ما لشوبان من التمجيد وخلود الذكر .

كنيسة بروشوف بالقرب من زيلازوفا وولا حيث تم عقد قران الوالدين وعمد بها فردريك شوپان فى ٢٣ من ابريل سنة ١٨١٠

الطفولة المعجزة

فى غرة شهر أكتوبر عام ١٨١٠ ، وهو عام مولد « فردريك شوبان » ارتحل والده نيقولاس وأسرته معه الى مدينة وارسو ، وقد بدأ الطفل الشهر الثامن فى مهده .

أما المدينة فقد كانت بحق معرض الأزياء والصور والمبانى واللغات والأديان . فكنت ترى الثياب الشرقية والسراويل التركية والمعاطف الأوربية ، وتشاهد الراهبات فى أرديتهن الدينية والفتيات فى حللهن الحريرية . ثم يلقاك اسرائيلى تسبقه لحيته المرسلة ، يتبعه بولونى بحذائه الأحمر متقلدا سيفه ... الى مناظر عديدة وألوان من الحياة ومن الناس فى أساليب معيشتهم وطرائق حياتهم بما لا ينتهى فيه الحصر .

الى هذه المدينة المائجة وذلك العالم الصاخب الذى لا يكاد يتفق فيه اثنان على طراز من العيش ، انتقلت أسرة « شوبان » الى غير عودة الى الحياة الريفية مرة أخرى . وقد نشأ ذلك عن تعيين رب الأسرة أستاذا للفرنسية بمدرستها الثانوية . وكانت أسرته قد تكاثر أفرادها ، فانه بعد « لويزا » و « فردريك » رزق أيضا بايزابيلا (Isabella) واميلى (Emilie) . وقد اقتضاه ذلك أن ينشد المزيد من الرزق على قدر المزيد من الذرية ، فبعد سنتين من المقام بوارسو شغل منصبه التعليمى للغة الفرنسية فى مدرستى الطوبجية

والهندسة ، ثم فى المدرسة الاعدادية الحربية بعد ذلك بقليل . وكل هذه الجهود فى سبيل توفير هناءة العيش له ولأسرته لم تكن وافية بحاجته ، مما اضطره الى الاستغناء عن بعض حجرات مسكنه وجعلها قسما دراسيا داخليا يقيم فيه نفر من أثرياء الطلاب الذين يفدون الى وارسو .

على أن ذلك الجو الصاخب الملىء بالجد والكفاح كان من ناحية أخرى ممهدا لحياة هنيئة ، تخيم على منزل سعيد ، تقيم به أسرة يؤلف عقدها الحب والتعاطف والاخلاص . مما جعلها منبتا حسنا للعبقرية المبكرة ، ومدرجا ملائكيا للطفولة المعجزة . . .

وهنا نشأ « فردريك » الطفل فى أحضان الفضيلة والقناعة ورقة الطبع ، تلك الصفات التى لازمته طوال حياته ولم نبارحه فى صبأ ولا شباب .

ولو أن لنا الآن أن نرجع بالزمن الى نحو قرن ونصف القرن ، لراعنا منظر طفل تنم مخايله عن سحر النبوغ وجلال العبقرية وهى تشع من ملامحه اشعاعة الفجر المنبثق قبل طلوع النهار وسطوع أضوائه الباهرة . ان ذلك الطفل يبدو نحيل الجسم ، شاحب اللون ، رقيق المشاعر ، هادىء النفس ، لامع الذكاء . وهو على حد تعبير صديقه الموسيقار لست «أشبه بالزهرة الباسمة ، فى نعومة المخمل ، المصونة عن أن يمسها غبار الطريق » .

وبينما هو فى نشاط العصفور وخفته ، اذا هو فى خفر العذراء وحيائها ، تتجاذبه عاطفتان من الحب العميق احداهما لوالدته النبيلة فى حنوها وفى عنصرها وثانيتهما لآلة البيان التى تملكت مشـــاعره

وسيطرت على وعيه وانتباهه كأن القدرة صاغته من أوتارها وخلقته من أنغامها .

وكأنما تلك الألحان التى استقبلته ساعة ولادته وتحت نافذة أمه قد استقرت فى كيانه ، وأخذت طريقها معه الى النمو . فلم يكن شيء مما حوله يشجيه ويستنزل الدمع من مآقيه سوى الموسيقى التى كان لها السلطان المطلق والتأثير الشامل فى نفسه . فلم يكن يعاوده الهدوء بعد سماعها الا فى عسر وعناء ...

شغف بآلة البيان شغفا استرعى من الوالدين اهتمامهما وعنايتهما ، فاستجابا الى دعوة هذه الموهبة الناشئة ، ورحبا بما يكمن فيها من طموح عجيب . فأسندا مهمة الدرس الأول فى الموسيقى الى صديق الأسرة الموسيقار أدلبرت زيفنى (Adalbert Zywny) من كبار أساتذة هذا الفن فى وارسو . وقد انحدر من بوهيميا ، وجاوز الستين من العمر . وهو مرب حاذق فى مهنته ، يجيد العزف بالبيان والكمان ، ومن المتأثرين بمذهب الموسيقار « باخ » المعتنقين أسلوبه الى حد تأثر به تلميذه « شوبان » الذى شاركته فى دروسه الأولى شقيقته الكبرى على يد أستاذه المجرب . والى هذا المربى يرجع الفضل الأول فى تنمية ملكة الطفل واظهار ثمارها فى وقت مبكر . فما أسرع ما أقبل الطفل على اجتياز المراحل بسرعة تتخطى الأوهام . فهو لا يقنع باجادة العزف ، ومهارة التوقيع ، وروعة الأداء ، بل هو فى تلك الطفولة البادئة أيضا يأبى الا أن يكون مؤلفا وملحنا . هاهو ذا يخلو الى معزفه فيستسلم لعالم سحرى من الألحان التى تتزاحم على رأسه الصغير المليء

بآيات الابداع والابتكار . ولكن أنى له حفظها واستجماعها وتسجيلها ؟... ومن له باقتناصها وتقييدها ؟... انه أستاذه الأب الروحى العطوف ما يكاد يرى الطفل تتنازعه الرغبات الملحة الى تسجيل الهامه وابتكاره حتى يشجعه ويأخذ بناصره ، فيسجل له ما استودعه وحى الموسيقى فى عبقريته من ألحان وأنغام ، تولى هو بعد ذلك تنسيقها واصلاحها .

ولا محيص لنا من وقفة يسيرة أمام هذا العمل التربيى المجيد الذى حافظ فيه المربى على شخصية فنانه الناشىء دون أن يحاول فرض شخصيته هو عليها . ولعل حكمة التجارب قد هدته الى أن من الخير أن ينزل هو عن مستواه الى طفولة « شوبان » فيعيش معه فى كيانه ، ثم يرشده ويهديه ، من أن يحاول الصعود المفاجىء بذلك الطفل فيمحو شخصيته وينفيها . ألا ترى كيف يصغى الى ألحانه ، ثم يكد القريحة فى استيعابها وتسجيلها ، ليقنعه أنه صار شيئا مذكورا ، دون أن يعمل على كبت موهبته وقتل روحه الطموح فيه !!!... ان عمله هذا يفوق فى فضيلته الألحان وتسجيلها ...

أترى أين يكون مصير « شوبان » فى غده المرتقب لو أن مربيه قد تجهم له وقطب حاجبيه وانتهره قائلا : دونك ياغلام ، قف عند حدك ولا تحاول ما لاسبيل اليه لمن هو فى سنك . لو أن ذلك قد وقع لانهارت دعائم هذا النبوغ من أساسها ، ولما سمع التاريخ بعبقرى يقال له « شوبان » .

لم يكد ينقضى بضع سنوات حتى كان الطفل قد اجتاز فى دراسة

ادلبرت زيفنى (أول مدرس لشوپان)

obeikandl.com

آلة البيان مرحلة شاسعة ، وصار اسمه حديث الأندية ، كما أصبح هو زينة المجتمعات الارستقراطية فى وارسو • واستولى فنه على ثناء الجميع واعجابهم •

أما الفرصة التى أتيح فيها لهذا النجم الثاقب أن يرسل اشعاعه الأول . ويبدو أمام الجماهير فى حفل عام ، فقد كان ذلك فى ليلة ساهرة أقيمت لعمل من أعمال البر والاعانة لشاعر قعدت به السن عن التكسب ، واختير « شوبان » الصغير للمساهمة الفنية فى هذا الحفل ولما يتجاوز الثامنة من عمره ، اذ كان ذلك فى الرابع عشر من فبراير عام ١٨١٨

ارتدى الطفل فى هذا الحفل المائج ، الملىء بالأشراف والنبلاء ، زيه على الطراز الانجليزى : فهذا صديرى من المخمل ، وحول عنقه بنيقة (ياقة) عريضة تتدلى من الجانبين على كتفيه • وكان ابتهاجه بهذا الزى عظيما ، لاسيما تلك البنيقة الجميلة التى لا يفوق سروره بها سوى اعجاب المستمعين بسحر الفن من الطفولة المعجزة التى تخطت فى موهبتها منطقة الزمن وحدود السنين والأعوام حين رأوا ابن الثمانية يشترك فى البر بابن الثمانين ، والفنان الطفل يحنو على الفنان الهرم ، والموسيقى الناشئة فى مدرج طفولة السن تسبغ ظل رحمتها وتمد رداء حنانها على الشعر الذى لو انطلقت قوافيه بآيات الاعجاز لعجزت أن تجد فى قواميس اللغات ما يصور هذه الآية الالهية الباهرة فى طفل لا تكاد ترى أنامله وهى فى صغر النمل تجرى على مفاتيح البيان جرى الأمل السريع والعزم الوثاب ، لتستهبط من سماء العبقرية خوارق الفن وروائعه • ثم هو بعد

لا يعرف الغرور ولا يخامره الاعجاب بنفسه والزهو بها . فيمضى الى منزله وكأن لم يحدث شيء فلم يأبه لهذا الضجيج من حوله ، وترك الألباب المسحورة تتبع بنظراتها ظل خطواته ، وهو غير مبال ولا مأخوذ بصيحاتها وهتافها . فاذا سألته الوالدة بعد عودته « أي شيء كان موضع اعجاب الجمهور بك ؟ » كان جوابه فى سذاجة الطفولة وبراءتها «يا أماه لقد كان الجميع ينظرون الى ياقتى !!..» .

واذا كان فى هذا الحوار بين الطفل ووالدته من عبرة فهى أنه كان فى حياته ابن الطبيعية ، وفى تفكيره مثال الفطرة ، وفى تصويره عنوان البراءة ، وفى عمله ابن الفن الذى طبعه على غراره فأرسله فنا طبيعيا صادقا لا تصنع فيه ولا تكلف ولا اعتساف . فهو كالطائر يملأ الهواء بأغانيه وهو فى سلامة فطرته لا يسأل عن مدى ما يبلغه من سحر السامع وفتنته .

ان الطبيعة حين تريد خلق المعجزة تهيىء لها البيئة الصالحة لنمو غرسها واشراق شمسها ، حتى تبدو كاملة تشهد بكمال الطبيعة واتقانها . هكذا نشأ « شوبان » فى تواضع البساطة حتى لا يتكبر ، وفى مجد الأرومة حتى لا ينخفض ويتخاذل . فقد ربى فى أحضان أبويه ، وتلقى عن والدته النبل وعن والده العلم والخبرة . وهذه المدرسة الأولى ركزت فى مشاعره المرهفة رقة الطبع ، وحسن المعاملة ، وجمال الذوق ، واشراق الروح . فما كاد هذا الحفل يصله بالمجتمعات الراقية حتى كان مهيئا بحكم تربيته الأولى لمجالسة الأمراء والنبلاء والأشراف الذين أصبح هذا الطفل المعجز سراج أنديتهم ، وجمال سمرهم ، ونزهة أسماعهم وأبصارهم . وقد زاده

الاتصال بهؤلاء وطول تردده عليهم وامتزاج حياته بحياتهم دماثة فى شمائله بما جعله طوال عمره مثالا لحسن المعاملة ولين الجانب ، ينفر بطبيعته من كل ما هو خشن ، متجافيا عن مواطن الغلظة وسوء العشرة .

وحدث أن مرت بمدينة وارسو الفنانة الايطالية أنجيليكا كاتالانى (Angelica Catalani) احدى مغنيات الدرجة الأولى من نوع الصوت الندى (السوبرانو) ، وكانت تقوم بجولة فنية فى أقطار أوربا وأواسطها الفنية . فما كادت تستمع الى عزف هذا الطفل فى وارسو حتى أخذها البهر وتملكها هذا السحر الفاتن فى زهرة الطفولة . وتقديرا لهذا النبوغ ، واعترافا بهذا الاعجاز أهدت الى الطفل ساعة ذهبية نقش عليها « ذكرى اعجاب وتقدير من السيدة كاتالانى الى فردريك شوبان فى سن العاشرة » .

وكانت مؤلفاته الأولى مجموعة من مقطوعات الرقص من أنواع « البولونيز » و « المازوركه » و « الفالس » . وكذلك « مارش » أهداه الى الأمير العظيم قسطنطين حاكم بولونيا وشقيق اسكندر الأول قيصر روسيا . وكان هذا الأمير فى حكمه جبارا مرهوب الجانب ، يخشى الجميع بأسه وبطشه ، ويهابه كل من اتصل به . دعا هذا الأمير ذو القلب الحديدى « شوبان » الصغير ولما يزل فى العاشرة من سنه ، وكان قد استمع الى عزفه ليلة الاحتفال بالشاعر منذ عامين ، فلم تبارح ذاكرته تلك المعجزة الموسيقية التى ما زالت تحبو بأقدام الطفولة ، وتعزف بأنامل تعجز الرجولة . فلما مثل الطفل بين يديه عزف له « المارش » الذى

أعده له . وما كادت النغمات القوية تشيع فى البهو حتى استحال جفاء هذا الأمير وغلظته وصرامة حدته الى رقة ووداعة . وقد تملكت الموسيقى جوانب نفسه فأحالت عنفه لينا ، وخشونته حلما وتلطفا . فأخذ يسير فى البهو مع ايقاع هذا المارش ويتابعه بخطوات قدمية وحركات يديه ، مماشيا للايقاع ومجاريا للنغم ، وهو مأخوذ مشدوه ، وانطبعت آيات الرضا على بسمات شفتيه اللتين قلما عرفتا الابتسام . وبلغ به ذلك أنه ما كاد الطفل ينتهى من عزفه حتى أمر بطبع النشيد ، واستمرار عزفه بصفة رسمية فى جميع الاستعراضات الحربية التى كانت تقام بميدان سكسونيا بمدينة وارسو . وهكذا يسوق الانتصار الفنى لهذا الطفل مجدا رفيعا قبل أن يبلغ سن الماجدين .

ان للعظماء فى حياتهم ما يشبه الغرائب فى آيات خلقهم وتكوينهم ، كأنهم بسجاياهم يعيشون فى عالم آخر غير هذا العالم . لماذا كان « شوبان » الطفل يرفع بصره دائما الى السقف وهو يعزف على آلة البيان ؟.. هذا مالاحظه الأمير قسطنطين عليه وهو ينشىء ويعزف ويبتكر . فقال له : « لماذا أنت دائم النظر الى أعلى ، أتطالع هنالك نوتة مدونة ؟.. » .

لقد كانت الاجابة على هذا السؤال تتجاوز مدارك الطفولة ، ولهذا لم يجب « شوبان » على ذلك التساؤل ، وان ظل عالقا بذاكرته طيلة حياته ...

نعم انه كان يطالع موسيقاه المدونة ، لا فى سقف البيت المحدود ،

يل فى سقف الكون كله . كان بصره يشاطر قلبه الطموح الى العلا . وكأنما كان يستلهم من عالم الملائكة الرفيع ما يشجى به سمع هذه الدنيا وأهلها .

وقد أكب الطفل على دراسة العزف بالبيان متحليا بصبر وجلد منقطعى النظير ، لفتا اليه نظر كل من عرفه واتصل به . وقد شق عليه فى طفولته أن يعالج بيده الصغيرة وأنامله الرفيقة عزف بعض التآلفات الموسيقية المتسعة الأبعاد ، والتى تؤدى أصواتها المتعددة فى وقت واحد . ولكن طموح العبقرية لا يقر بالعجز ولا يعرف اليأس ، فقد حملته هذه الصعوبات نفسها على أن يلجأ الى الحيلة اذا أعيته الوسيلة . فاخترع جهازا يضع فيه أنامله فيصبح فى مقدوره أداء هذه التآلفات فى يسر وسهولة . وبلغ من طول مزاولته لهذا الجهاز أن كان لا يفارقه حتى على فراش نومه ، كأنما كان يحاول فى الأحلام أن يبتكر الأنغام ...

لم يدفعه الى ابتكار هذا الجهاز حب الشهرة ولا الرغبة فى اظهار عيره بمظهر العجز والقصور عن مجاراته ، وانما حدت الى ذلك رغبته فى السيطرة على توافق الأصوات مهما تعذر أداؤها . وقد اشتملت مؤلفاته على الكثير من هذه التآلفات حتى أصبحت هى الطابع الذى تمتاز به موسيقاه ، تلك الموسيقى التى كانت تبدو فى ذلك الوقت كأنها معجزة مستحيلة الأداء ، ولكن مهرة العازفين استطاعوا بطول المحاولات جيلا بعد جيل أن يسيطروا عليها ، وأن يتوافروا على أدائها بما جعلها فى هذا العصر مألوفة لديهم .

ولكن أليس من العجب أن يقوم هذا الطفل بتوسع فنى ساحر تتخبط فيه مواهب عصره والأجيال من بعده فلا تكاد تصل اليه الا بشق الأنفس ؟ ان الطفولة المعجزة هى التى تعجز الرجال وتتعب الأجيال .

وذلك الاستعداد الخارق فى هذا الطفل لتأليف الموسيقى وصوغ الألحان لفت اليه نظر والده بما جعله يعنى بتوجيهه الى استيعاب دراسة هذه الناحية دراسة تدنو الى الكمال ، وان كان لم يدر فى خلده حتى ذلك الحين أن ولده هذا انما خلق ليعيش فى الموسيقى ولها وحدها ، وليصبح ابن بجدتها ، والمجلى فى حلبتها . وانما كان هذا الوالد رغم ما يلاحظه من هذا النبوغ يعد ولده لمرحلة التعليم الثانوى ليأخذ طريقه بعدها الى استكمال دراساته العالية فى أحد فروعها العلمية .

وقد حالف التوفيق هذا الوالد مرة ثانية فى اختيار مدرس صالح لاذكاء شعلة هذا النبوغ وانضاج ثمرته . ففى عام ١٨٢٤ حين بلغ الطفل أربعة عشر عاما وبدأ مرحلة الدراسة الثانوية عهد والده به الى صديقه الموسيقار جوزيف السنر (Joseph Elsner) مدير معهد الموسيقى بوارسو لدراسة الهارمونى وعلم صوغ الألحان ، بعد أن أروى ظمأه بمعرفة أصول الموسيقى وقواعدها الأولى على يد « زيفنى » الذى دعم نبوغه ، وأحسن تربيته ، وكشف الستار الأول عن عبقريته .

كان « السنر » من سيليزيا الألمانية معدودا من أقطاب هذا

چوزيف السنر
(المعلم الثانى لشوپان والمشرف على توجيهه بعد ذلك)

obeikandl.com

الفن . يعرف له العدد الكبير من المؤلفات الموسيقية فى أنواع الأوبرا والسيمفونى والأغانى • والى هذا الموسيقار الممتاز والمربى القدير يرجع الفضل فى انضاج عبقرية « شوبان » وتغذية الهامه ، فما كاد يتصل الاستاذ بتلميذه حتى هاله ما أنس فيه من نبوغ خارق واستعداد بعيد الغور للابداع والانشاء وطابع خاص فيما يبتكره ويبدعه • ومن ثم تعهده بمزيد التثقيف وحسن التوجيه • وأخذت العلاقة بينهما منذ هذه الآونة تتوثق حتى استقرت بينهما رابطة روحية جمعتهما مدى الحياة •

كان من حكمة « السنر » أن يغض الطرف عما قد يبديه تلميذه من الخروج فى صوغ تآليفه الموسيقية على القواعد المعروفة والأصول الموضوعة ، فاذا ما حاول أحد أن ينبه شوبان الى هذا صاح فى وجهه « السنر » قائلا : « دعوه فى سلام الفكر وسكينة الروح • انه يخرج على المعتاد لأن عبقريته غير عادية • صحيح أنه لا يلتزم الأصول القديمة ولكنه يعوضنا عنها أصولا مبتكرة ليست أقل منها شأنا • انه ليضفى على مؤلفاته طابعا خاصا أكسبها من المميزات ما لا نجده فى سواها الى الآن » •

لقد كانت حكمة « السنر » كسياسة « زيفنى » قائمة على بناء الشخصية والمحافظة على كمال الحرية ، تلك الحرية الفنية التى يطير الفنان فيها بجناحيه الى كل أفق دون أن تكبل مواهبه بسلاسل القواعد وأغلال الأساليب الموروثة • وكان توجيه « السنر » القائم على اطلاق يده فى الابتكار من أقوى الدعائم التى قامت عليها عظمة « شوبان » فى المستقبل • فقد امتدت به قدرته الى مدى

بعيـد فى قوة التصرف والابتكار ، والتفريع الملهم على الأصـل البسيط المحدود والجملة الموسيقية الموجزة ، مما يسحر الألباب ويأتى بالعجائب • فاذا ما جلس الى آلة البيان وأعطى فكرة أشبه بالفقرة الصغيرة من موسيقى موتسارت أو بيتهوفن أو غيرهما استطاع أن يمضى فى عزفه على تلك الآلة ساعات متتالية ، وهو يبنى على تلك الجملة اليسيرة ويبتكر فى مهارة تأخذ بمجامع القلوب ، وفى ألوان ساحرة من الألحان التى تجعل المرء يعجب وهو مأخوذ يتساءل بينه وبين نفسه كيف تتاح لأنامل الانسان أن تستخرج من هذه المفاتيح الصماء هذا الفن المعجز والنغم الساحر والابداع المنقطع النظير • بل لقد أثبت « شوبان » بهذه المقدرة الرائعة على هذا التفنن أنه موسيقار شاعر فى وقت واحد • وان من الشعر ما هو موسيقى ان لم تنطق بالكلمات نطقت بالألحان والنغمات •

الصبا النابه

ان العبقرية تفرض نفسها حيثما وجدت ، وتحتفظ بمكانتها أنى ظهرت • وتأبى العبقرية الا أن تكون صاحبة المكانة والامتياز حتى فيما لم تخلق لأجله لأنها كما قيل « سراج ينير حيثما وضع » •

فهذا هو « شوبان » صاحب الطفولة المعجزة فى الموسيقى ، وفى الموسيقى وحدها ، يأبى الا أن يكون هو « شوبان » المتفرد بالشخصية الخارقة التى تمزق الحجب وتعلو على المستوى العادى ، وتتخطى الحواجز لكى لا يسبقها سابق ولا يلحق بها لاحق ، لا فى الموسيقى وحدها ولكن فى جميع ما تمتد اليه ظلال تلك العبقرية ، وفى أية ناحية كان تجوالها ومجالها •

هذا هو « شوبان » اليافع ما كاد ينتظم فى سلك المدرسة الثانوية حتى أبدى من البراعة فى علومها والفوز فى مسابقاتها ما لفت اليه الأنظار وجمع حوله القلوب بالاعجاب • فما من عام دراسى الا وهو حافل بجوائزه العلمية والفنية حتى استشرف الجميع الى ما كان ينتظر الفتى النابه من مستقبل باهر يكون فيه آية عصره وغرة جبين زمانه •

ومع هذا التقدم فى العلوم والفوز فى المسابقات فقد كان « شوبان » الطالب حاضر البديهة ، عذب الفكاهة ، بارع النكتة ، مرحا الى أبعد حدود المرح ، الا ما كان ينتابه أحيانا من الانقباض والحزن العميق • وكان بين لداته وزملائه محبوبا ، يستميل عواطف

الجميع واندفاعهم نحوه . وكان من أسباب ذلك قدرته العجيبة على محاكاة الأصوات وتقليد الحركات وتغيير ملامح وجهه فى خفة ومهارة تثيران الضحك والاعجاب . ولعل هذا يكشف عن بعض أسرار نجاحه فى خلق الموسيقى الكاشفة لجميع الصور الانسانية ، ومستودعات المشاعر النفسية ، ومختلف النزعات والملكات والاتجاهات . فالقدرة على المحاكاة فرع الادراك لما يحاكيه ، ونتيجة التعمق فى الكون الذى يصوره . أو بتعبير آخر يدل هذا على مقدار ما وهبته الطبيعة من الصفاء الذى مكنه من أن يطبع فى نفسه الصور المختلفة بحيث يتثنى له بعد ذلك أن يخرج من ثمار عبقريته ما يلائم جميع المذاهب والألوان والرغبات التى يستشفها من الذين يقلدهم ويحاكيهم .

أو ليس عجبا أن نراه فوق هذه الميزات رساما فكاهيا ممتازا ، يقوم برسم أساتذة مدرسته فى تصوير ينتزع الابتسامة من الواجم والضحك من الحزين !!! . حدث أنه أعد رسما « كاريكاتوريا » لمدير مدرسته الأستاذ « لندا » . وشاء القدر الساخر أن تقع الكراسة ورسومها فى يده . فماذا حدث ؟ هل قامت القيامه ، وزلزلت الأرض زلزالها . وأعدت العقوبة الصارمة للطالب المتجاوز حده ؟ ... هذا أول ما يتبادر الى الفكر عندما نقرأ الشطر الأول من هذه الحادثة . فاذا أتممنا شطرها الثانى كان اعجابنا بالمدير المربى لا يقل عن اعجابنا بالفنان . فما كاد المدير يطلع على الرسم حتى أعاد الكراسة الى صاحبها فى صمت الحكماء ، وقد ذيلها قبل امضائه بتلك الكلمة « رسم جيد » . لم يحاول المدير أن يقتل

فردريك شوپان فى عامه الرابع عشر

obeikandl.com

شعور الطموح والاستعداد الفنى فى ذلك القالب الغض • ولعله توقع أن يرى فى « شوبان » رفائيل آخر يأتى بالمعجز فى التصوير وبالعجيب فى الرسم • ومن أجل هذا نسى أو تناسى أنه مجنى عليه ، وأنه كان موضع سخرية فنية من تلميذه • ولكنه نظر الى المسألة كلها نظرة تربيبية عالية ، لها من السمو ما يفوق التعبير والتصوير •

وهذه القدرة على التقليد جعلت من « شوبان » ممثلا حاذقا • وهل التمثيل الا تقليد الأشياء ونقل حقيقتها الى معرض الخيال المشهود ؟ فكثيرا ما اشترك مع شقيقاته ورصفائه وزملائه المقيمين فى منزله فى اقامة حفلات تمثيلية لمناسبات سنوية عائلية • وهو فى هذه الحفلات نجمها الثاقب ، وفى هذه التمثيليات بطلها المرموق • وفى شتاء عام ١٨٢٤ كان موعد الاحتفال بعيد ميلاد والده فأقاموا لتلك المناسبة حفلا شائقا مثلت فيه مسرحيـــة هزلية ذات فصل واحد ، كان الصبى « شوبان » بطلها المتفوق والى جانبه شقيقتاه ايزابيلا وايميلى • ولم يكن قد تجاوز الى ذلك الحين الرابعـــة عشرة من عمره •

أما العطلات المدرسية فقد كان « شوبان » يقضيها فى قرية سافارنيا (Szafarnia) ، بين أحضان الطبيعة الحنون ، متمتعا بشمس الريف وهوائه ، وسكينة ليله ، وخضرة مروجه ، وظلال أشجاره • بعيدا عن ضجة المدن ومتاعب التحصيل والاستذكار بين المدرســـة وذلك البيت الذى كان مدرســـة أخرى • وكانت الطبيعة قد أضفت على هذه القرية حللا من مناظر الجمال الساحر

الخلاب بما يوائم طبيعة « شـوبان » ويلائم مزاجـه الموسيقى الشاعر • وكان والده يلتمس له فى ذلك بعض الراحة والاستجمام • وأنى لذلك النبوغ القلق الثائر أن يخلد الى السكينة والدعة ؟ وكيف يطلب من فكر متقد اتقاد الشعلة أن يخمد ولو قليلا ويستكين الى راحة وقنية ؟ •

لقد أبى « شوبان » الا أن يتخذ من العطلة عملا ، ومن اللعب جدا • ولكن ماذا يصنع الآن ؟••• لقد بقيت مهنة لم يزاولها بعد وهى الصحافة • فليكن اذن صحفيا • وليصدر فى هـذه الفترة الصغيرة مجلة قروية يسجل فيها أخبار القرية التى لا تزال تحتفظ من ذكرياته بعددين من صحيفته المؤرخة عام ١٨٢٤ •

وكان « شوبان » فى هذا الدور من الصبا قد آغرم بنوع من العبث ببعض العقول ، والتفكه بما يقع تحت نظره من الحوادث ، حتى يلعب بألباب الجماهير من حوله • هذا الذى لم تلهه لعب الصبيان فلعب فى صباه بالرجال ، فى غير اضرار ولا اساءة ، ولكن فى طرافة ومزاح هما فن من الفن •••

اتفق روموكى (Romocki) أحد أثرياء الزراع أن يبيع صفقة من القمح لتاجر يهودى • فما علم « شوبان » بالأمر حتى أراد أن يخلق فى الجو دعابة تملأ فراغ الوقت • فكتب الى ذلك الثرى خطابا انتحل فيه شخصية التاجر اليهودى ، واصطنع فيه أسلوبا بولونيا يهوديا ينبئه فيه أنه نتيجة لتفكير طويل فى الأمر عدل عن هذه الصفقة خشية ما يتوقعه من الخسائر فيها • وامعانا فى سبك الدعابة وحبك

التمثيل تصنع رداءة الخط وتعمد الخطأ فى الاملاء . وقد نجحت الحيلة فان الثرى ما كاد يقرأ الرسالة حتى استشاط غضبا ، ودعا اليهودى ، وأخذ يكيل له السب والتقريع ، وقد هم بضربه لولا أن تداركه « شوبان » وأبان جلية الأمر .

ومما يؤثر عن طرفه فى هـذه السن المبكرة أنه كان باحدى ضواحى وارسو كاهن بروتستانتى يدعى تتزنر(Tezner) . وكان يلقى عظاته أيام الآحاد ، بالألمانية حينا وبالبولونية حينا آخر . وكان هذا القسيس فيما ينتحل من اللغة البولونية يتكلف فى حديثه لهجة ريفية تشوبها الركاكة والضعف والابهام. ودفع حب الاستطلاع « شوبان » الصبى الى أن يغشى هذه الكنيسة ليستمع فيها الى حديث ذلك الكاهن والى أسلوب لغته الطريف . وقد أصغى اليه فى امعان وفحص ونقد ، حتى اذا عاد الى منزله شكل من المناضد والمقاعد منبرا قام عليه فى هيئة الخطيب ، وقد وضع على رأسه شعرا مستعارا ، ونادى أفراد أسرته . فلما اجتمعوا اليه بدأ يلقى عليهم موعظة دينية فى لغة بولونية ركيكة حاكى فيها أسلوب ذلك الكاهن ، بما جعل قهقهة المستمعين تملأ أجواز الفضاء .

أمامداعباته الموسيقية فقد جمعت الى الفن الطرافة ، والى المداعبة الجد ، والى التسلية الاصلاح والتقويم ...

عاد يوما الى منزله ، وكان والده متغيبا فى بعض شأنه ، فرأى بين نزلائه هياجا وشغبا وعجز المدرس الذى كان بينهم اذ ذاك أن يغير من الأمر شيئا ، أو أن يسكن ثائرة هذه الضوضاء . فلما

أقبل « شوبان » اقتحم هذه المظاهرة وتسلل من فجوانها الى مقعده أمام آلة البيان ، وجلس يداعبها بأنامله • وما كادت النغمات الأولى تقرع أسماع الثائرين حتى سكن ضجيجهم ، وأقبلوا على ألحانه ، وكأن شيئا من وراء الطبيعة أسكت أصواتهم ليعلو صوت الموسيقى • ثم انتهض « شـوبان » وأطفأ أنوار البهو و قال : « اليكم هذه القصة التى سأحدثكم عنها بأنغامى لأعرف أيكم يستطيع أن يتابعنى فيها ، ويدرك تصوير مشاهدها » • ثم أخذ فى عزفه يصور عصابة من اللصوص قد أقبلت على منزل ••• لقد تسلقت سلما الى النافذة ••• هاهم أهل المنزل يشعرون بوجودهم ••• ما يلبث اللصوص أن يرتدوا عن المنزل بغير انتظام ••• انهم يفرون الى لفائف أشجار الغابة ••• لقد أضناهم النصب فجلسوا ، وتغلب عليهم النوم فمالت رؤوسهم ••• ثم أخـذ « شوبان » يتدرج فى رقـة العزف وخفوت الصوت ، كأنما كان يردد لحنا لتنويم الأطفال ، حتى أحس أن جميع أولئك المستمعين من حوله قد داعب أجفانهم النوم • وفى هذا الوضع العجيب غادرهم « شوبان » ليدعو والدته وشقيقاته لمشاهدة هذا المنظر • ولما تابعنه ، وبأيديهن الشموع المضاءة ، رأين من الأوضاع المضطربة فى منظر هؤلاء النائمين ما يضحك الثكلى • ثم تقدم « شوبان » الى البيان فأرسل من عزفه أصواتا عالية أيقظت هؤلاء النائمين من سباتهم العميق وأزعجتهم فى رعب ، وتركتهم فى حيرة من أمرهم ، لا يعلمون أنهم كانوا موضوع القصة ، وأنهم لصوصها الرمزيون الذين اقتحموا

سكينة الحياة المنزلية ، حتى ردتهم الموسيقى الى ما يشبه الغابة من سكينة وسلام ...

* * *

لم يعد « شوبان » الناشىء يأبه باحياء الحفلات العامة ومظاهرها فقد أصبح موسيقارا ، شاعرا ، فنانا ، يهتم بالانشاء والتأليف ، لأن ذلك هو سبيل اظهار الثمار الفكرية التى تعد حقيقة بارزة فى حياة العباقرة ، وهى التى تحييهم وتخلد ذكرهم . وهى لديهم أهم من تلك السعادة الوقتية التى تنطوى عليها تلك الحفلات ، أيا كانت عظمتها وشأنها .

أخذت الألحان تتزاحم كالأمواج على رأس هذا الصغير ، وتملكته قائما وقاعدا ، على تعاقب الصباح والمساء . وقد حمله ذلك على ايثار العزلة ليخلو بنفسه وينفرد بعبقريته ، بعيدا عن الشواغل والضوضاء . وكثيرا ما سهده هذا التأليف فبقى الى ساعات متأخرة من الليل وهو نهب لحوافز الالهام ونوازع العبقرية. فما يكاد يستقر على فراش نومه حتى تنتزعه من سريره فكرة لحن لم يتم وتآلف لم يتضح تعبيره ، أو تقديم لم يكتمل تصويره ، فيقفز الى آلة البيان ليوضح الفكرة ، ويكمل التصوير والتعبير . وبعد أن يعزف بعض تآلفات يربط بها ما تباعد من حلقات خواطره يعود الى فراشه . فما يكاد يستقر قراره حتى يثب كره أخرى من سريره الى بيانه ليتثبت من فكرة لحن آخر أقض مضجعه حتى نبا به عن الفراش ولم تغمض بعد عيناه .. وهكذا يقضى الليل متقلبا ، فى ذهاب وجيئة بين سريره ومعزفه ، وهو قلق مأخوذ الخواطر

مسلوب الراحة • ومن مطالب العظمة فى حياة العظماء ما هو أشد على حياتهم من النوم على أوكار الأفاعى • وما أشد الحيف الذى يقع على أجسامهم ، ويعرض صحتهم للسقم ، وزهرة حياتهم للذبول •

واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

لقد كان منظر « شوبان » فى الليل الساجى ، وتقلبه بين أحلامه وأنغامه مما يثير عجب الخدم ويريبهم فى أمره ويجعلهم يظنون به الظنون ، وقد يتهمونه بالجنون فيرغبون الى أهله فى أن يعرضوا أمره على أطباء الأمراض العقلية •

وكان من مزايا الطفولة النابهة فى حياة « شوبان » أنه ما يكاد يمضى مع والده فى نزهة خلوية ، أو ينصرف الى الريف فى عطلة مدرسية ، حتى يرسل نفسه وسمعه فى طلب كل أنشودة تنفرج عنها شفاه أهل الريف ، أو صوت ينطلق من مزامير القرى • وكانت تلك الأغانى الفطرية أحب الأصوات الى سمعه ، وأنفذها الى قرارة نفسه ، وأثبتها فى خياله وذاكرته • وكم كان يتساءل فى لهفة المشتاق : أى موسيقار ساحر أخرج هذه الألحان ؟•• ومن الذى أبدع تلك الأغاريد الشعبية التى ترقص المشاعر مع ألحانها ؟•• ومن الذى علم سكان الريف هذا الفن القويم فى سلامة أدائه واستقامة عزفه ؟•••

وما من أحد كان يستطيع أن يجير جوابا على هذه الأسئلة ، ولكن الجواب الصحيح أن تلك الأغانى القروية والألحان الشعبية

ليس تأليفها ولا تلحينها مما يمكن أن ينسب الى أحد من الناس بعينه • انما هى مشاعر فرد غنى بما أحس ، فاستمع اليه ثان فردد الغناء وأضاف الى اللحن ما شاء ، ثم أنشدها ثالث ، وتلقفها رابع ، وعدل فيها خامس وسادس ، وتناقلتها شفاه الى شفاه حتى صارت من الشعب والى الشعب • ولقد ولدت هذه الأغانى وربيت فى مهد الطبيعة تحت سقوف من الغاب وظلال الأدواح والأشجار ، وبين خضرة المروج وانبثاق المياه المتدفقة • فهى الهام الطبيعة ، وهبة الفطرة لأناس أميين لم تتعقد أفهامهم بتراكيب القواعد وتجاعيد المشاكل العلمية • فهم يرسلون اللحن على سجيته فى يسر الطبع وسلامة الطوية • ثم هم بعد مجهولون ، وسيظلون كذلك مجهولين ، لأن ما أرسلوه من جمال تلك الأغانى لم يكن الا ثمرة احساس الشعر والموسيقى فى حياة الانسان • وهكذا تنشىء الطبيعة فى كل قرية وفى كل حقل ، وفى كل رابية وبادية ، معهدا موسيقيا ، أساتذته الطبيعة ومناظرها ، وألحانه الحياة وخواطرها ، وتلاميذه أولئك الأطهار الأنقياء الذين يعبرون فى تلك الأغانى الشعبية عن شعور الشعب الذى لا تكبته هموم الحياة ولا العمل المضنى الثقيل ليل نهار • بل التعبير الموسيقى الشعرى هو الذى يخفف أعباء الهموم ويهون مشاق الأعمال ، ويجعل كفاح الشعب رياضة محبوبة وتسلية مرغوبة •

كل تلك الفضائل الشعبية المصورة فى بساطة تلك الألحان هى التى وجد فيها « شوبان » الصغير سعادته الكبرى • وهى التى اختزن منها فى ذكرياته الشىء الكثير ، وكانت هى الكنز الذهبى

الذى وعته ذاكرته وهضمته عبقريته • واستطاع أن يستثمر من ثروتهـا النفسية ألوانا من موسيقى الرقص الشعبية وألحانا من تلك الأغانى ، أحكم تنسيقها ، وأبدع تركيبها الفنى على أصول عجيبة هى الاعجاز فى فن توافق الأصوات •

وبحسبك أن تمعن فى مقطوعته المازوكة لامينير مصنف ١٧ رقم ٤ ، وهى وان كانت تبدو متأخرة الترتيب بين مطبوعاته الا أن مرجعها تلك الآونة التى تأثر فيها بحياة أهل الريف ، وما يرسلون من تلك الأغانى والأغاريد فى مجتمعاتهم ومواسمهم وأفراحهم ولياليهم المرحة الهنيئة التى تشاطرهم الطبيعة أسمارها وجمالها •

واليك منها هذا المثال الذى تقف منه على مدى تأثره فيها بألوان الحياة الشعبية :

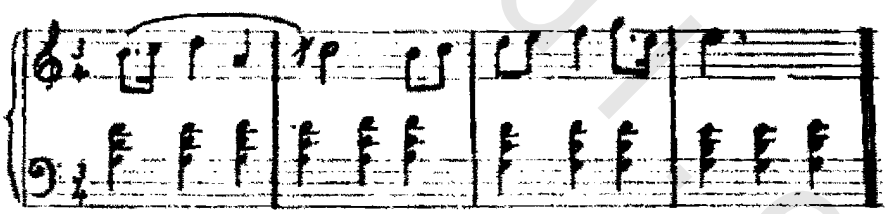

وما كاد هذا الناشىء النابه يبلغ الخامسة عشرة حتى سبق نبوغه سنه • وكأن الأيام من حياة النابغين هى السنوات من حياة غيرهم • لقد ذاع اسمه وطبقت شهرته آفاق بولونيا • ولو أنه كان فى نبوغه هذا فى اكتهال العمر أو تقدم السنين لعد ذلك عجيبا ونادرا ، على الرغم من أن الكمال والنضوج يلازمان الكبر • ولكنه نبوغ مبكر

يثير العجب وما فوق العجب • لقد استولى « شوبان » ، الصغير فى سنه ، الكبير فى فنه ، على الأوساط العامة والطبقات الراقية ، وأصبح تفوقه الموسيقى ونباهة شأنه مثار حديث الجميع فى كل غدوة وروحة ، وفى كل ندى وملتقى • وأصبح نجاح كل حفل موسيقى فى وارسو رهنا بسطوع نجمه فيه • ومن ذلك حفلان أقيما لمشروعات البر فى السابع والعشرين من مايو وفى العاشر من يونيه عام ١٨٢٥ فى معهد الموسيقى • وكانت ألحان « شوبان » وسحر عزفه على البيان أقدر من كل بيان على اثارة عواطف البر واهاجة أحاسيس الخير ، مما كان له أعظم أثر مرضى •

ومن أحداث تلك السنة نفسها أن قدم لزيارة وارسو اسكندر الأول قيصر روسيا لافتتاح مجلس الأمة البولونى • وكان قد ظهر فى الأفق آلة موسيقية أخترعها أحد مهرة هذا الفن وأطلق عليها اسم « ايلوميلوديكون » وهى معزف جمع بين مزيتى الأرغن والبيان • ورغب القيصر فى الاستماع اليها • وقد وقع الاختيار على « شوبان » ليقوم بالعزف أمام القيصر على تلك الآلة الجديدة ، اذ كان يتمتع من المقام الفنى بما لايتطاول اليه غيره ، وقد وضعت هذه الآلة لتلك المناسبة فى الكنيسة الكاثوليكية حتى يكون لعظم قبتها أثر كبير فى تضخيم ما ينبعث من أصواتها ... وهكذا أتيحت الفرصة مرة أخرى ليسطع ذلك النجم الصغير فيبهر بسحره الأسماع ، ويملك ألباب القياصرة • فما أن دارت أنامله على مفاتيح ذلك المعزف حتى دارت معه العقول ، وسيطرت أنغامه على المشاعر والأحاسيس • وأعجب قيصر الدولة بقيصر الموسيقى • وأبى الا أن

يعبر عن اعجابه بصورة جديرة بهذا الفنان فأهدى الى تلك الأنامل التى بهرته خاتما من الماس يجمل مظهرها بقدر ما جملت الموسيقى بحسن ايقاعها وبارع عزفها .

وفى تلك السنة أيضا صدر مصنفه الأول ، وهو مقطوعة « روندو » مهدى الى السيدة « لندا » قرينة مدير مدرسته الثانوية . واذا لم يكن هذا المصنف وما تلاه من مصنفاته الباكرة ، فى حداثة سنه ، قد بلغ من القوة ما يتخطى بشهرته سماء بولونيا فحسبه أن هذه المؤلفات كانت هى الآيات الأولى التى نشرت اسمه وأذاعت شهرته فى جميع أرجاء وطنه ، ومنحته المكانة الممتازة ، والمقام المتفرد ، والغاية التى لا تدرك . وشهد الجميع له بالنضوج الفنى وان كان لا يزال لدن العود أخضر النبات .

وتلك المصنفات البارعة وما دلت عليه من شواهد العبقرية وآثار النبوغ الفذ أقنعت والديه بتغيير رأيهما فى مستقبل فتاهما الصغير . فقد ظنا فى بداية الأمر أن شأن الموسيقى مع « شوبان » ولدهما لا يتعدى أن يكون ضربا من الهواية ولونا من الترفيه ، الى جانب دراسته الثانوية التى تعده لاستكمال دراسته العالية والتخرج فى باب من أبواب المهن العامة . أما الآن وقد تبينت لهم الآيات ، ووضحت البينات ، على أن الطبيعة تعد « شوبان » ليكون اللحن الفريد فى عصره فلم يكن لهما بد من أن يخضعا فى أمره لسلطان الموسيقى ؛ ويضعا مستقبل ولدهما الحبيب فى يد الموسيقى ، والموسيقى وحدها ، لتكون مهنته ويكون ربيبها ورسولها الذى يبلّغ رسالتها للعالم . ومنذ ذلك الحين لم تعد العقبات والحواجز

معهد الموسيقى بوارسو (الى جانب برج أجراس كنيسة برناردين)
مديره الأستاذ چوزيف السنر
وقد التحق به شوپان من سنة ١٨٢٦ الى سنة ١٨٢٩

تقف فى سبيله وتعترض تقدمه ، فقد أصبح خالصا مخلصا لحبيبته الوفية آلة البيان ، يسجل فيها أسرار نفسه ، ويودعها روائع الهامه ، ويملى عليها أحلام شاعريته • وكان ذلك بطبيعة الأمر عاملا جديدا فى المزيد من شهرته ، والاعلاء من مكانته ، وتعلق الطبقة الراقية به ، والتفاف زملائه طلاب المعهد الموسيقى والمدرسة الثانوية من حوله • ولم يكن بين لداته وزملائه من طلبة ذلك المعهد من يتطاول الى مساماته أو يطمع فى مجاراته ، فقد بلغ من تقدمه السريع المعجز فى هذا الفن ومقدرته الغريبة فى العزف بالبيان ما جعل هؤلاء جميعا يبايعون هذه الموهبة الجبارة ، ويقفون من صاحبها موقف التلميذ من أستاذه ••• هذه الموهبة السحرية كانت تجتذب اليه قلوب الجميع ، وتلقيهم بين يديه مسحورين ، مأخوذين بذلك التفوق الباهر ، متندرين بمزاحه ومداعباته وصوره الفكهة ، برحابة صدر وحسن قبول • على أنه كان فى كل ذلك مثالا من رقة الطبع وجمال الخلق • وقد أسلفنا أنه ربيب بيت النبل ، ونديم الأمراء ، وأنيس الأشراف والعظماء • ومن هذا شأنه فلن تكون أخلاقه ومعاملاته الا مقطوعات موسيقية غير معزوفة •••

على أن وقت « شوبان » لم يعد يتسع لغير « شوبان » • وقد أخذت المشاغل تتزاحم على ليله ونهاره ، وتملك عليه قياد نفسه ، وتأخذ عليه سبيل الراحة والسكون • فهو من بكرة نهاره الى الغروب بين التحصيل فى مدرسته الثانوية والدراسة فى معهده الموسيقى • حتى اذا عادت الطيور الى أوكارها ، وأسدل الليل أستاره ، عاد هو الى آلة البيان التى تنتظره فى لهف وشوق فخلا اليها

يبثها نجواه ، ويسألها أن تترجم مشاعره وابتكاراته • ولاينقضى ليله الا فى التنقل بين فراشه ومعزفه ، فهو يقظان حتى فى نومه ساهر حتى فى أحلامه ، لا يغتمض جفنه ولا يجد الهدوء طريقا الى نفسه القلقة المتوثبة الى المجد الذى يكلفه الثمن الغالى • وسيدفعه لا من فضـــة ولا من ذهب بل من جسمه الرقيق وبنيته الشفافة وسنه الباكرة • وهكذا تأثر ذلك البدن الناحل ، وبدأت آثار الاجهاد تبدو عليه ، فنصح له الأطباء أن يرافق شقيقته الصغرى المريضة الى حمامات راينرز (Reinerz) فى سيليزيا ، لينال قسطا من الهدوء والاستجمام • وقد بدأت العطلة الصيفية لعـام ١٨٢٦ فسافر مع شقيقتيه لويزا وايميلى ووالدتهم الى تلك الحمامات •

وحدث أثنـاء اقامتهم أن توفيت أرملة فقيرة جاءت الى هذه الحمامات طلبا للاستشفاء ، فوافاها الأجل المحتوم ، تاركة وراءها طفلين صغيرين لايجدان من يرعاهما فى المحنة القاسية سوى خادمة وفية بقيت الى جانبهما ، وهى لاتجد من المال مايكفى لمواراة الجثة الهامدة طى الثرى ولا للضرورى من نفقات العودة باليتيمتين •

ومن ذا الذى يأسو هذه الجراح الدامية ويخفف بعض هذه الدموع التى تتقاطر فى غزارة مياه الحمامات من أجفان خادمة بائسة وصغيرين ليس لهما فى هذه البقعة وطن ولا قربى ؟•• من ذا الذى يأخذ بأيدى هؤلاء المساكين وهم أمام تلك الأرملة الطريحة جسدا هامدا على سرير موتها المبلل بدموع أولئك الثلاث من حولها ، وتلك الأنات مهما ارتفعت بالصياح والعويل فلن تجد فى هذا المجتمع

الصـــاخب من يصغى اليهـــا أو يلتفت بنظرة عاطفة الى أصحابها التعساء ؟..

لئن خلت قلوب أولئك من الرحمة فثمت قلب واحد يستطيع أن يتجاوب مع تلك الأحزان ليرد حزنها اطمئنانا ، وألمهـــا أملا ، وحيرتها رشدا . ذلك هو قلب «شوبان» الذى رثى للأسرة والمصاب فأقام حفلا خيريا لمعونة أولئك البـــائسين . وقد أقبل الأشراف والنبلاء والطبقة العليا من المصطافين على هذا الحفل الذى تطوع به الموسيقار الناشىء جنديا أمينا للانسانية المنكوبة .

وهنا تتحير الجماهير المتدفقة بين الاعجاب بفن « شوبان » فى الموســـيقى وبين العجب من حنـــوه وأريحيتـــه النـــادرة ومروءته الفائقة وانسانيته التى نسى فى سبيلها ما من أجله أقبـــل هو وأسرته الى هذه الحمامات . وكل ذلك قد لايكون عجبا من موسيقار يعزف ، أو موسيقار يتبرع بحفل ، أو موسيقار يكلف نفسه فوق طاقتها ويدعو الناس الى صنائع المعروف . ولكن الأمر يبدو فوق العجب من موسيقار يتقدم الصفوف وهو فى سن لا تعدو فجر الشباب الذى لايصمد لمثل هذه الأعباء ، وهى ترهق الكبار وتعد من كبرى أياديهم لو فعلوها . ثم ينقضى الاستغراب ، وينقضى كل عجب اذا علمت أنه « شوبان » .

وبعد مضى أيام على اقامة هذا الحفل الخيرى غادر « شوبان » حمامات زاينرز وتوجه تلقاء قرية « أنطونين » ليقضى بتلك القرية بضعة أيام فى قصر الأمير أنطون رادزويل «Anton Radziwill» وهو من ثراة الأشراف ، ينتمى الى الأسرة المالكة البروسية ، بقدر ما كان

يمت بنسب عريق الى أسرة الموسيقى • ولم يكن الشأن فى هذا الأمير ينتهى عند مجرد حبه للموسيقى وحدبه على أهلها ، بل كان ذا ثقافة ممتازة فيها ، متعمقا فى تفهم أصـــولها ، عالما بفن التأليف وصوغ الألحان • وقد ذاعت فى ذلك شهرته وتخطى صيته الآفاق حين وضع لحنا خالدا لشعر « جيتا » فى الجزء الأول من فاوست • وقد بلغ من قيمة هذا اللحن الفنية أن أكاديمية الغناء ببرلين أمرت باستعراض هذا اللحن سنويا • وكان الأمير فوق ذلك ذا صوت حسن من نوع الصداح (التينور)الممتاز ، بقدر ماكان يجيد العزف فى مهارة فائقة على الكمان الجهير (الفيولنسل) • وهذا ما جعل قصره ندوة حافلة بالموسيقيين ، ومجتمعا يضم البارزين منهم • وهم يقبلون اليه من الأطراف والجهات فيعرضون ويستعرضون • ومايكاد أسبوع ينقضى دون أن تدوى فى هذا القصر المنيف احدى المقطوعات المثـــالية الشهيرة من موسيقى هـــايدن وموتســـارت وبيتهوفن ، يساهم الأمير فى أدائها بغنائه أو عزفه • وقد كان قدوم « شوبان » الى هذا القصر تلبية لرغبة هذا الأمير • وكان لاقامته فيه وفى محيطه الريفى الارستقراطى أكبر الأثر وأجله على نفسه وجميع مشاعره • فقد نسى هنا كل شىء من دنيا الناس والحياة ، وشعر بالجمال المطلق يتجاذب روحه فى عداد المناظر والألوان ، وقد فتح قلبه لجمال الزهر الانسانى يشاهده ويحييه وانتهت شاعريته الى أن وصف هذا القصر بأنه الفردوس •

ولماتجلت للأميرعبقرية «شوبان» وموهبته النادرة أدنى منزلته ، وقرّب مكانه ، وحباه بموفور الرعاية مدة اقامته • وقد توثقت

أواصر المودة بينهما حتى ان الأمير عندما زار وارسو عام ١٨٢٩ فى مناسبة تتويج القيصر « نيقولاس » لم يفته أن يحيو « شوبان » الفتى الناشىء بزيارته فى منزل أبويه ، ملحا عليه ألا ينسى زيارة « أنطونين » كلما بدا له .

واستحكمت روابط الألفة بينهما ، وأضفى عليه الأمير الكثير من العناية والاهتمام مما حمل بعض المؤرخين على الاعتقاد بأنه هو الذى تولى الانفاق عليه فى بقية مراحله الدراسية ، الى أن بعثه على نفقته أيضا الى ايطاليا . وكان الموسيقار « لست » بين أولئك الذين أثبتوا فى مؤلفاتهم هذا الرأى ، دون أن يقوم على سند أو برهان سوى ما اعترف به هو من معلومات استقاها بهذا الصدد من أحد مهاجرى البولونيين فى باريس . وهذا القول يخالف فى جملته عين الحقيقة التى كشف عنها التاريخ فى غير ريبة ولا خفاء . فقد أنكر ذلك جميع من اتصلوا بشوبان اتصالا قريبا ، كما استنكره أبواه ونفياه نفيا قاطعا لا يحتمل شكا ولا ابهاما . والواقع أن « نيقولاس » والد « شوبان » لم يكن من العسر بما يذهب اليه خيال أولئك المؤرخين ، فقد كان يحصل على دخل وافر من ثلاث معاهد حكومية بوارسو هو أستاذ فى كل منها ، علاوة على مدرسته الداخلية بمنزله على ما أسلفنا بيانه . فلا يتصور بعد هذا أن يقف به العسر وضيق ذات اليد عن مواصلة الانفاق على وحيده « فردريك » الذى كان مطمح الأنظار ، ومحط الآمال ، والسبب فى شهرة ذلك الوالد والأسرة بأجمعها . وكان «شوبان» الشاب مغمورا بالهبات ، يسبح فى بحر من النعم . وكانت الهدايا تتوالى عليه من الملوك والأمراء

والأشراف . كما أن رحلاته مؤيدة جميعها برسائل متبادلة بينه وبين والده ، وكلها تنطق بما كان يسبغه عليه والده من البر ، وقد كان يبذل له عن وسعة وطيب نفس كل ما يحتاج اليه من المال فى تلك الرحلات . ومن الناحية الأخرى فان المكاتبات العديدة المثبتة بينه وبين أمير « أنطونين » جاءت خالية من كل اشارة الى هذه الناحية المادية .

وانما جمعت بين « شوبان » والأمير ألفة روحية لا أثر فيها للنفقة والانفاق ، ولا مجال فيها للأخذ والعطاء . وهى تلك الألفة التى دفعت بشوبان أن يهدى الى الأمير مقطوعته المعنونة « ثلاثى للبيان والكمان والكمان الجهير (الفيولنسل) » وأعنى المصنف رقم ٨ بين مجموعة مؤلفاته ، وهو تلك المقطوعة التى بدأ وضع ألحانها عام ١٨٢٧ .

* * *

هذه هى الصورة المثالية لنشأة العبقرى الذى أرانا فى صباه أعجب المشاهد وأروع المناظر وفى جميع نواحى الحياة ، التى تقلب فى مذاهبها وتغير على مناهلها ، واختلف الى مناظرها ، وكان فيها مثال الصبا النابه الذى يلتهب نبوغا ويلتمع اشراقا وتحفزا . فيبدى البراعة فى كل شىء يحيط به وفى كل معنى يلقاه ، على نحو ما صورناه .

وهكذا تمهد رسالة الصبا النابه لأداء رسالة الشباب العبقرى ..

الرحلة إلى برلين

فى عام ١٨٢٧ اجتاز « شوبان » الامتحان الأخير لدراسته الثانوية فى مدرسة وارسو . ولم يكن نجاحه هذه المرة قد بلغ التفوق والامتياز اللذين تعود أن ينالهما فى امتحاناته السابقة تلك التى كان يمنح عليها الجوائز ويتقلد بها شارات الفخر بين أنداده وزملائه . فان تفرغه للموسيقى فى المدة الأخيرة وتفانيه فى الاقبال عليها ومواصلته الليل بالنهار فى تحصيلها والانتاج فيها ، بعد أن اقتنع أبواه بأنها سبيل مستقبله ومستقر حياته ... كل ذلك قلل من شأن الامتحانات المدرسية الثانوية . وقد كان خيرا له أن يتفوق فيما خلق له ، من ذلك التفوق الذى تقتصر نباهة الشأن فيه على وسط مدرسى محدود . وكان ذلك نتيجة أيضا لما اختصه به أستاذه الموسيقار « السنر » من استيعاب مؤلفات أعلام الموسيقى وتشجيعه على أن يطاوع عبقريته ويطلق لها العنان فى مجال التجديد والابتكار .

وقد استقرت النية منذ الآن على أن لا تقتصر دراسته الفنية على موسيقى وطنه ؛ بل لابد لمثل « شوبان » فى نبوغه غير العادى ألا تحتجز عبقريته الشاسعة فى أفق بولونيا المحدود . وبدت للمشرفين على أمره ضرورة اشخاصه خارج هذا النطاق من البلاد الأخرى ليوسع دائرة معلوماته ، ويزيد من قوة اختباره وينمى ملكة اطلاعه ، ويتعرف الى أقطاب الموسيقى ونجومها البارزين

لتنعكس على مرآة نفسه صورة جلية من نبوغهم ومواهبهم ، حتى يستزيد فيزيد ، ويستفيد فيفيد .

ومما لا مرية فيه أنه قد استمع قبل اليوم الى الكثير من الفن الأجنبى الذى كان يؤديه مهرة العازفين ومشاهير المغنين عند زيارتهم لوارسو . ولكن ذلك لم يشبع طموح « شوبان » الى العيش فى أجواء العواصم الأجنبية الكبرى التى يتربع فيها الفن على عرش ملكه ، والتى هى دائما ملتقى العبقريات ، والمرحلة الأخيرة للفنون فى كل ما تصل اليه من تقدم نحو مثلها العليا . فتحين أبواه الفرصة لارساله الى برلين أو ڤينا ليقضى فيهما ولو بضعة أسابيع . وقد تحقق ذلك فى عام ١٨٢٨ حيث دعى الأستاذ ياروكى (Jarocki) لحضور مؤتمر العلوم الطبيعية فى برلين . وكان هذا العالم موضع ثقة « نيقولاس » والد « شوبان » . فرغب اليه فى أن يكون الفتى العبقرى فى صحبته . وقد سر « ياروكى » بأن يكون رفيقه فى الطريق وأنيسه فى الرحلة شاب يتألق نجمه سطوعا مثل « شوبان » . ولأول مرة شهدت عين هذا الفتى نور الحياة الجديدة فى العواصم المليئة بما يغذى طموحه ويشبع روحه الظامئة الى المجد الخالد .

وقد كان هذا النابغة الفتى من التواضع بما جعله لا يفكر وقتذاك فى أن يظهر فى برلين عازفا أو مؤلفا . ولكننا نستطيع أن نصور مبلغ ابتهاجه ومقدار سروره بهذه الرحلة فى تلك الرسالة التالية التى كتبها الى صديقه تيتوس فويسكوفسكى (Titus Woyciechowsky) من مدينة وارسو قبيل سفره قال :

عزيزى تيتوس !

انك لاتدرى مدى أشواقى الى ترقب أنبائك وأنباء والدتك ، ولهـذا فانك لا تدرى مـدى ما ألم بى وشمل نفسى من هناءة وسرور عنـدما تلقيت رسـالتك ، فلقـد كنت يوم تسلمتها فى « استريزوفا » التى أمضيت بها مـدة الصيف • ولم تمكنى الشواغل من سرعة اجابتك اذ كنت أواصل الاسـتعداد مترقبا العودة الى وارسو •

انى لأكتب هذه الرسالة اليك وأنا كمن به جنة لأننى لا أعلم حقا أى حادث وقع لى ، فانى مسافر اليوم الى برلين • فقد أصدر ملك بروسيا أمره الى الجامعة باستدعاء الممتازين فى العلوم الطبيعية من جميع ممالك القارة لعقـد مؤتمر تحت اشراف « اسكندر فون همبولد » المشهور • وكان الأستاذ « ياروكى » فى جملة من دعوا اليه فهو من الخريجين فى جامعة برلين والحاصلين منها على درجة الدكتوراه ، وكذلك متخصص فى على الحيوان • وحديث هذا المؤتمر يدور على ألسنة الناس بما له من جلال الأهمية وعظيم الخطر • وأهم من ذلك كله لدى ما بلغنى من أن الموسـيقار سپونتينى (Spontini) سيحيى للمؤتمرين حفـلا مشهودا • وقد اختير العـالم لشتنشتاين (Lichtenstein) أسـتاذ « ياروكى » وصديقه الحميم لسكرتارية هذا المؤتمر • وهو فى نفس الوقت عضو بارز فى أكاديمية الغناء وعلى صلة بالموسيقار زلتر (Zelter) مدير الأكاديمية • وقد أكد لى الكثيرون أن الفرصة ستتاح لى عن طريق « لشتنشتاين » للتعرف بأعلام الموسيقى فى بروسيا وبلاطها ،

وأستثنى الموسيقار « سپونتينى » فقد بلغنى أنه على غير انسجام معه • لكن سيكون من حسن المصادفة وداعى السرور لنفسى أن ألتقى هناك بالأمير « رادزويل » فانه على صلة وثيقة بهذا الموسيقار • ولن تمتد بى هذه الرحلة مع « ياروكى » الى أكثر من أربعة عشر يوما • ولكن حسبى أن تتاح لى مشاهدة أوبرا واحدة جيدة الأداء فى عرض كامل •••

وانى مضطر الآن الى اختتام رسالتى اليك فقد تم حزم أمتعتى ، ووصلت عربة البريد التى تقلنا وشيكا الى بداية رحلتنا • أرجو أن تغمر بقبلاتى يدى الوالدة وقدميها • واليهـا من والدىّ وشقيقاتى خالص تحياتى ، فى أطيب التمنيات لها بموفور الصحة ومأمول السعادة • أما أنت ياعزيزى « تيتوس » فأملى أن أتلقى منك فى القريب رسالة ولو قصيرة فى بضع سطور ، فانها مهما تكن موجزة ستحل من نفسى محل الاعزاز والتقدير •

المخلص
فردريك

واذا استطاعت هذه الرسالة أن توضح مبلغ ارتياحه الى تحقيق هذه الرحلة ، ففى الرسالة التالية تتبين ذلك الشعور على حقيقته بعد بلوغه عاصمة بروسيا ، وهى الرسالة التى بعث بها الى أسرته منها ، قال :

برلين فى يوم الثلاثاء (١٦ من سبتمبر سنة ١٨٢٨)
الى أحبائى الوالدين والشقيقات !
لقد بلغنا فى سلامة الله هذه المدينة الكبرى فى نحو الساعة

الثالثة بعد ظهر الأحد • وأسرعنا من عربة البريد الى الفندق الذى نقيم به الآن • ولا ينقصنى شىء من الراحة والهناءة • وقد صحبت الأستاذ « ياروكى » يوم وصلنا الى السيد « لشتنشتاين » حيث تمكنا من رؤية « اسكندر فون همبولد » • وهو رجل متوسط القامة • وتقاطيع وجهه لا تثير الشعور بجمال فيها • أما جبهته العريضة ونظراته العميقة الفاحصة فهى تنم عن عبقرينه وتنطق بسعة علمه • لقد تحدث « همبولد » بالفرنسية فى طلاقة تحسبه فيها واحدا من أبنائها • وأحسب ياوالدى أن هذا هو عين حكمك وتقديرك لو استمعت اليه • وقد وعدنى « لشتنشتاين » بأن يتيح لى فرصة التعرف الى رجال الطبقة الأولى من الموسيقيين • وهو يبدى أسفه على أن لم نكن قد حضرنا قبل هذا الموعد بأيام لنشهد حفلا موسيقيا اشتركت فيه ابنته بالأداء مع مصاحبة الفرقة الموسيقية يوم الأحد الماضى • ولا أظننى كبير الأسف على فوات هذه الفرصة ، وان لم أكن متأكدا من مدى الصواب فى هذا الحكم ، اذلم يسبق لى أنى رأيتها أو استمعت اليها • وقد أقيم يوم الأحد حفل موسيقى بدار الأوبرا ، ويؤسفنى أننى لم أشهده لأن ذلك كان يوم وصولنا حيث شغلنا أكثر الوقت بزيارة « لشتنشتاين » • وقد أقيمت بالأمس مائدة فخمة لتكريم العلماء (وقد بدا الكثيرون أمامى فى أشكال كاريكاتورية استطعت تقسيمها الى عدة أنواع) • ولم ينعقد الاجتماع برياسة « فون همبولد » ولكن كانت الرياسة فيه الى رجل آخر يختلف عنه تمام الاختلاف ، ولا أحتفظ باسمه فى ذاكرتى وان كنت قد احتفظت به فى مذكراتى ، لما كان يبدو من أنه شخصية

ذات شأن . أما اليوم فسأتناول الغداء وحدى . وقد اعتزمت على استئذان « ياروكى » فى أن أستبدل بالطعام مع العلماء الطبيعيين الذهاب الى احدى الحفلات الفنية ، وظنى أنه يوافقنى على ذلك . وانى وحيد فى هذه الساعة تغمرنى سعادة غبية بأن أخصص هذا الوقت للتحدث اليكم . وقد راجت هنا شائعة مؤداها أن پجانينى (Paganini) عازف الكمان الشهير سيقدم الى برلين . وليت هذا يتحقق . ومن المتوقع أن يقبل الأمير « رادزويل » الى هنا فى اليوم العشرين من هذا الشهر . وسيكون سرورى عظيما بمقدمه . وانى حتى الآن لم أشاهد من مجتمعات برلين غير علماء الحيوان ، كما شاهدت جزءا عظيما من أقسام المدينة . وتجولت خلال هذين اليومين فى كثير من شوارعها وجسورها . أما وصفى لفخامة هذه العاصمة الكبيرة وقصورها الشامخة الجميلة فسيكون الحديث المسهب فيه اليكم شفويا بعد عودتى . وكل ما أستطيعه الآن هو التعبير عن مدى التأثير العام فى نفسى لهذه المدينة . ان اتساعها أكثر مما يجب . وفى قدرتها أن تضم أضعاف من يقيم بها اليوم من السكان . وقد أردنا بادىء الأمر أن نقطن « الشارع الفرنسى » وقد سرنى أن ذلك لم يتم ، فهذا الشارع يزيد فى عرضه على أكبر شوارع وارسو فهو بحاجة الى عشرة أمثال من يعيش فيه من الناس حتى يصبح فى الامكان ألا يشعر ساكنه بالوحشة .

وستبدأ اليوم أولى مشاهداتى للحفلات الموسيقية ببرلين . وقد كنت أعد نفسى سعيدا لو أننى قصدت فى بكرة هذا النهار

لأقضى ساعات فى مكتبة « شليزنجر » بدلا من هذا الوقت الذى أمضيه اليوم مع ثلاثة عشر عضوا فى مجتمع من علماء الحيوان • وأعتقد ياوالدى العزيز أنك لن ترمينى من أجل هذا بأننى محدود الثقافة ضيق الأفق فاننى انما قدمت الى هذه العاصمة من أجل الموسيقى وكسب المعارف الجديدة فيها • ومكتبة « شليزنجر » هذه تحتوى على أمتع المصنفات وأوسع المؤلفات لأعلام الموسيقى من جميع البلدان وفى كل العصور • وهذا ما يعنينى أكثر من أية ناحية أخرى • وعزائى الوحيد أنه لن تضيع منى فرصة زيارتى لهذه المكتبة • وانه لمن الخير للشباب أن يشاهد أكثر ما يمكن مشاهدته من الأشياء فانه سيجد الفائدة فى كل شىء يشاهده • ولقد تمكنت صبيحة اليوم من زيارة مصنع « كستنج » للبيان فى نهاية « شارع فردريك » ويؤسفنى أننى لم أجد به آلة تم صنعها • لهذا لم تكن زيارتى هذه ذات جدوى • ولعل من حسن التوفيق أنه يوجد فى الفندق الذى نزلنا به آلة بيان من النوع الكبير الجيد أقوم بالعزف عليها كل يوم ، ومما يزيد فى اغتباطى أن أصحاب الفندق معجبون بعزفى •

أما الرحلة على جملتها فقد كانت أقل بهجة مما كنت أتصور • فهؤلاء المؤتمرون البروسيون غير مريحين • ولكننى بلغت عاصمة بلاط « هوهنزلرن[1] » فى صحة جيدة لا تنقصها الغبطة والمرح • أما رفقاء الطريق فقد تألفت مجموعتهم من أحد رجال القانون من الألمان المهاجرين الى « پوزن » وقد كان يحاول التظرف بنكات

(١) اسم الأسرة المالكة فى ألمانيا وقتذاك •

ثقيلة . وآخر من الملاك الأثرياء الذين صقلتهم كثرة أسفارهم .. وقبل وصولنا الى مدينة « فرنكفورت » على نهر الأودر رافقتنا فى عربة السفر شاعرة ألمانية تجر فى ركبها موكبا من حشد المطالب محفوفة بألوان من التذمر المضحك . أما أنا فقد راقنى منظر هذه السيدة وما يحوط بها من التكاليف والتعاقيد . فقد كان يخيل الىّ أننى أمام منظر متقن من رواية مضحكة . وقد تجلى ذلك عندما بدأت فى شجار وحوار مع رجل القانون أخذ سبيل الجد بدلا من المداعبة والمزاح ، فقد كانت تحمل كل كلمة على معناها الجدى ، ثم تأخذ فى تفسيرها ، وتجرى الدقة فى تحليلها .

أما ضواحى برلين فانها من الجانب الذى دخلنا اليها منه لا تبدو جميلة . ولكن النظافة والنظام يسيطران فى كل مكان ، ويسبغان عليه روعة الجمال بما يثير بهجة الناظرين . وغدا أشاهد برلين من الجهة الأخرى . كما ستبدأ بعد غد اجتماعات رجال العلوم الطبيعية . وقد وعدنى السيد « لشتنشتاين » بالحصول على بطاقة دخول . وفى المساء يقيم « اسكندر فون همبولد » حفل استقبال يدعو اليه أعضاء المؤتمر . وقد عرض علىّ الأستاذ « ياروكى » أن يحصل لى على دعوة ، فاعتذرت اليه شاكرا لما أشعربه من قلة ما أفيده من مثل هذه المجتمعات التى تتجافى فى مادتها عن ميلى الروحى ، فما أقل بضاعتى من العلم . ولا مرية فى أن هؤلاء العلماء المتخصصين سيتساءلون آخر الأمر عمن زج بهذا الهاوى بين صفوفهم ، أو على حد المثل المعروف « من أقدم الصعلوك الى مجالس الملوك » . وقد شعرت بذلك أثناء وجودى معهم

فى المائدة فقد كان الى جانبى الأستاذ « ليمان » عالم النبات المشهور فى مدينة همبورج وقد أخذ يصوب الى وجهى نظرات عجيبة • أما أنا فقد كنت دهشا من هذه الضخامة الرهيبة فى قبضة يده • وقد كان فى استطاعته أن يمزق بسهولة قطعة الخبز الكبيرة التى كنت أحتاج فى تقطيعها الى استعمال يدى معا والسكين • وقد انحنى على المنضدة ليتمكن من الحديث مع الأستاذ « ياروكى » وفى فورة الكلام اندفع به الحماس ، وغمره ذهول العلماء فنسى الطبق الذى أمامه ، وأخذ ينقر بأنامله على الطبق الخاص بى • انه عالم ، جد عالم ••• أليس كذلك ؟ وحتى ضخامة الأنف التى يجب توافرها فى العلماء لم يحرمه الله مزيتها • وقد كنت فى أثناء هذا النقر قلقا حتى انتهى منه ، فبادرت باستعمال المنشف لازالة آثار أصابعه من الطبق •••

محبكم

فردريك

وقد استغرقت اقامة « شوبان » فى برلين أربعة عشر يوما لم يدع خلالها فرصة للاستماع الى الموسيقى الا انتهزها وبخاصة حفلات الأوبرا • كما أتيحت له فرصة وجوده مع علمين من أعلام الموسيقى هما « سپونتينى » و « مندلسون Mendelssohn » • الا أن الحياء بلغ به درجة لم يستطع معها أن يتقدم اليهما بنفسه • وغادر برلين دون التعرف اليهما • وعاد مع « ياروكى » الى وارسو •

وحدث أثناء الطريق عندما بلغا مدينة « زيلشاو » بين فرانكفورت

وپوزن أن اضطر الى الانتظار بها ساعة ريثما تتغير خيول العربة • وكان فى هذا الموضع فندق ، فقصد « ياروكى » مع « شوبان » اليه لتناول الغداء • وسرعان ما لفت نظر « شوبان » وجود آلة بيان فى الفندق ، فقصد اليها فى الحال ، وأخذ يختبر أصواتها ، ويمتحنها • فلما استيقن من ضبطها بدأ يوقع من سحر عزفه ورائع ابتكاره ، ويرسل الألحان المعجزة التى أخذت بألباب من حوله ، وأحالت هذه الرقعة الى مظاهرة فنية فى هذا الفندق المتواضع • واسترعى عزفه أسماع الجميع وأنظارهم ، وسلبهم قوة الاحتكام فى أنفسهم • فهذا أحد المسافرين الألمان قد جمد فى مكانه ، وتملكه سحر الموسيقى ، فلم تعد تنظر فيه سوى عينين تتابعان حركات أنامل العازف ، وقد غاب عن كل ما حوله حتى غليونه الذى كان مشعلا ينبعث منه الدخان فقد انطفأ دون أن يشعر به ••• وهؤلاء بقية النزلاء يدخلون الواحد تلو الآخر فى هدوء تام وسكينة شاملة •• وهذا أيضا مدير عربات البريد يدخل الغرفة ومعه قرينته الضخمة وابنتاهما الجميلتان ••• وها هو الفنان يستغرق فى أحلام ألحانه فلا يحس من حوله ••• والجمهور يقبل رويدا رويدا ••• وقد حبس الجميع أنفاسهم استمتاعا بهذه الألحان التى نقلتهم الى دنيا من الجمال الموسيقى لم يكونوا يحتسبون فى يومهم ذاك أن يسمو بهم الحظ اليها ، ولكنها أقبلت عليهم ساعة من النهار على أنامل « شوبان » الملهم •

ولكن هذا السحر ما لبث أن انقطع تياره بصوت أجش بغيض أطل من النافذة كالخطب المفاجىء معلنا التأهب لمواصلة السفر •••

وها هو مدير البريد يصب جام لعناته على صاحب هذا الصياح المزعج الذى نبه « شوبان » من حلمه الموسيقى وحمله على أن ينهض لمواصلة الرحلة ... ولكن الجمع المأخوذ بجمال توقيعه توسل اليه بكل ما يستطيعه من رجاء أن يمضى فى عزفه ولو الى نهاية المقطوعة ... وفى مقدمة الجميع مدير البريد الذى يلحف فى الطلب ويلح فى الرغبة الى « شوبان » أن يؤجل مسيره بضع ساعات ، على أن يجعل خير ما لديه من الجياد رهن اشارته وطوع أمره ... أما زوجه الضخمة فقد تسلحت بجسمها البدين العريض كأنما تحاول أن تسد المنافذ وتأخذ المسالك على الفنان حتى لا تفلت من الأيدى هذه السعادة الروحية ... ولم يكن بد للفنان من أن يجيب وينزل عند هذه الرغبات .

وفى نهاية العزف أقبل الخادم يحمل أقداح النبيذ ، وتولت بنات صاحب الفندق بأنفسهن القيام على الخدمة ومراسم التكريم . وبدأن بالفنان العظيم يقدمون اليه فى كؤوس النبيذ تحياتهن . وعلى وجوههن آيات السرور والابتهاج ... وكان ممن هناه أحد المسافرين أقبل عليه يحييه بصوت متهدج محتبس قد أثرت فيه آيات « شوبان » وبراعة فنه وقال له : « سيدى !! اننى رجل شيخ !! تعمقت فى دراسة الموسيقى ، وأجيد العزف بآلة البيان . لهذا فانى أستطيع تقدير الكنز الثمين الذى أسعدتنا به الأقدار هذا اليوم . ولو قد أتيح اليوم لموتسارت أن يسمعك لمد يده اليك هاتفا مهنئا ، وقال لك مرحى مرحى . أما أنا فى خمول ذكرى وضآلة شأنى فلن أجرؤ على ذلك » .

وكذلك نهض مدير البريد معلنـا فى الجميع « انى سأذكر بالتمجيد « فردريك شوبان » ولن أنسى الاعجاب به ما حييت » •

وقد اختتم هذا الحفل الذى ارتجلته الأقدار ارتجالا بعزف مقطوعة من تأليفه من نوع « المازوركه » • ولما أتمها وهم بمغادرة الفندق صمم مدير عربات البريد على أن يحمل الفنان الصغير الى موضع جلوسه من العربة بين هتاف الجماهير واعجابهم •

ولما وصل الركب الى « پوزن » نزل « ياروكى » مع « شوبان » ضيفين على الأمير « رادزويل » • ثم قضوا ليلة اليوم يهزون أرجاء القصر بروائع النغم وبدائع الألحان •

ثم عاودت العربة سيرها متجهة صوب وارسو • وهنا لم يكن للفنان ما يشغله سوى اللهف على لقاء أهله والشوق الذى يكاد يدفع العربة بنيرانه دفعـا الى حيث هم مقيمون • وكانت آماله ونظراته تسبق الجياد ، وتكاد تطير بها عدوا فى الفضاء بدلا من صعيد الأرض ، فقد تجمعت كل نوازع الشوق فى هذا القلب الفتى ، وأصبح يعد الساعات بالأيام واللحظات بالساعات الطوال ، حتى بلغ وارسو فى السادس من أكتوبر ، حيث احتضنه الحب وضمه الحنان بين أذرع أبويه وصدريهما • وغمرته قبلات شقيقاته بفيض من الحنو • ولم لا وقد عاد الى البستان بلبه الغريد ، وطلع على النفوس المتلهفة ما يفوق صباح العيد •